مجلة الحكمة للدراسات الاسلامية
Eissn :2773-4471 Issn : 2353-043X
المجلد 11 / العـدد: 02 (2024)، ص: 56-73

مثارات الفرادة و العطاء في تراث يحي بن معطي الزواوي

قراءة في منظومة البديع في علم البديع

Themes of Individuality and Generosity in the Heritage of Yahya ibn Ibn Mu'adhi al-Zawawi: A Study of the EloquenceSystem in the Science of Eloquence.

ميلاط إسلام [1]

[1]المركز الجامعي مغنية(الجزائر)، milatislam682@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/04/08 تاريخ القبول: 2024/04/29 تاريخ النشر: 2024/05/27

ملخص:

أجمع كل من ترجم ليحي بن معطي الزواوي (ت624ه) من المغاربة و المشارقة .قديما و حديثا .على براعته في العلوم الأدبية و اللغوية، فهو واحد من أكابر علماء بجاية في القرن السابع الهجري، ومساهمة منا في إبراز جهود هذه الشخصية العلمية، سعت هذه الورقة البحثية لبيان مداخل عطائه المعرفي والفكري في حقل الدراسات البلاغية. و كان من النتائج المحرّرة: أنّ نظم البديع في علم البديع يعدّ مصدرا من مصادر علوم البلاغة في المدرسة البلاغية المغربية،وأنّ منظومة ابن معطي اشتملت على مصطلحات علم البديع بشكل رئيس، لكنها ضمّت في المقابل مصطلحات من فنون أخرى مثل: الاستعارة، الكناية، الإشارة،وغيرها.

كلمات مفتاحية: علوم اللسان، المنظومة،يحي بن معطي الزواوي، البديع في علم البديع.

Abstract:

The scholars, both from the Maghreb and the Mashriq, ancient and modern, unanimously agree on the brilliance of Ibn Muaṭṭi Al-Zuwaawi (d. 624 AH) in literary and linguistic sciences. He stands as one of the foremost scholars of Bijaya in the seventh century AH. As a contribution to highlighting the efforts of this scholarly figure, this research paper seeks to elucidate his cognitive and intellectual contributions in the field of rhetorical studies.

Among the findings highlighted was that the poetic system in the science of poetry serves as a source of rhetorical sciences in the Moroccan rhetorical school. Ibn Muaṭṭi's system included primary terms of the science of poetry, while also encompassing terms from other arts such as metaphor, metonymy, and indication.

Keywords: Linguistic Sciences, System, Yahya ibn Mu'adhi al-Zawawi,Eloquence in the Science of Eloquence .

***المؤلف المرسل:** ميلاط إسلام

1. مقدمة:

اشتهرت الجزائر ـ حرسها الله تعالى ـ بغناها بالمدن العريقة ذات البعد التاريخي والحضاري الكبير، على غرار مدينة بجاية ـ حاضرة بلاد زواوة ـ التي كان لها الفضل الجلي واليد الطولى على الحركة العلمية في الحضارة الإسلامية،ولا نبالغ إذا قلنا إنها ساهمت في تخريج رواد العلم والمعرفة ممن شعت أنوارهم ومعارفهم وكفاءاتهم على العالمين العربي والإسلامي، بل وعلى مدن أوربية عديدة خلال سنوات الاحتكاك والتفاعل بين المغرب الإسلامي والغرب المسيحي.

يشهد التاريخ المحفوظ لمدينة بجاية أنها كانت مركزا فكريا رائدا، وصلت إلى قمة التطور الحضاري والإبداع الفكري والعلمي في عهد الملوك الحماديين،إذ بلغت المدينة ذروة مجدها ومنتهى رقيها وازدهارها في عهدهم بين مدن شمال إفريقيا، فقد عمل سلاطين وأمراء الدولة على الرفع من مستوى فضاءات العلم والإبداع والابتكار، وذلك من خلال تشييد المساجد والمدارس والكاتيب والمراكز العلمية، واستقطاب العلماء من أهل الفكر والنظر من مختلف الأقطار والحواضر الإسلامية.

ومن المفيد هنا، الوقوف عند شهادة الرّحالة المغربي " العبدري " الذي وصف بعض مظاهر الحركة العلمية ببجاية، فقال: "إن مدينة بجاية مبدأ الإتقان والنهاية، و هي مدينة كبيرة حصينة منيعة شهيرة، وهذا البلد بقية قواعد الإسلام، و محل جلّة من العلماء الأعلام...و لأهله حسن الخلق والأخلاق "((Espace_réservé1) (Espace_réservé2)العبدري،2007م، 26 . 27)، ونعتها خالد البلوي بنادرة الدهر وأثيرة النفوس(خالد البلوي، د.ت، ص 267).

هذا النشاط العلمي والفكري الذي شهدته المدينة في ظل الدولة الحمادية، لم تشهد له نظيرا من قبل،حتى أصبح اسم بجاية يقترن بجهابذة العلماء والزهاد والصالحين، وتجسد ذلك الإشعاع العلمي الذي انفردت به هذه المدينة العامرة من خلال تكوين جيل بارع من المفكرين والعلماء في الدين واللغة والطب والرياضيات والهندسة والفلسفة والفلك والاستطباب والجراحة وعلم الزراعة والجغرافيا حتى أصبحت بجاية تنافس كبرى الحواضر العلمية في المشرق الإسلامي كبغداد ودمشق والقاهرة وغيرها.

أمدت بجاية الحضارة العربية الإسلامية بعلماء أجلاء، كان لهم دور فعال في إثراء الحضارة العربية الإسلامية والنهضة الأروبية، ومن هذه الأسماء التي بقيت خالدة على مرّ الأيام والأزمان: ناصر الدين المشدالي، أحمد بن إدريس البجائي، شرف الدين المنقلاتي، أبو الفضل المشدالي، محمد بن بلقاسم المشدالي، يحي العيدلي، المهدي السكلاوي، إبراهيم بن فائد الزواوي، وغيرهم كثير ممن ذكرتهم كتب السير والطبقات.

كانت بجاية كعبة طلاب العلم و مقصد رحلتهم العلمية لأكثر من أربعة قرون، ومن أبرز الأعلام البارزين الذين تتلمذوا على أيدي علمائها، نذكر منهم الرّحالة المقرئ أبو القاسم يوسف الهذلي(403 . 465هـ)، والفقيه المحدّث أبو عبد الملك مروان البوني (ت439هـ. 1047م)، والقطب الصوفي أبو مدين شعيب (ت595هـ)، والحافظ الحجة أبو عمران الأشميري (ت589هـ . 1193م)، والفقيه الفيلسوف أبو حامد الصغير المسيلي(ت 580هـ. 1185م)، و شيخ علماء وهران محمد بن عمر الهواري الذي قال عنه مترجمه ابن صعد الأنصاري الأندلسي: " و كان مبدأ قراءته بمدينة بجاية، دخلها

بعد صومه بسنة، فقرأ على أعلامها الجلّة عيّن منهم الإمامين سيدي عبد الرحمن الوغليسي، و سيدي أحمد بن إدريس، وصرّح في كثير من كلامه أنّه لقي بها جملة من العلماء أهل الصدق و الورع، أجازوه في جميع العلوم،وفي نظمه المسمى بالتسهيل، قال: لو وصفت لك ما رأيت في بجاية و هي بلد الورع والعلم.

كما قصدها طلبا للعلم و المعرفة، شيخ علماء جزائر بني مزغنة الإمام عبد الرحمن الثعالبي(ت 879هـ.1470م)، و رحل إليها أيضا الإمام أبو عبد الله الشريف التلمساني، وقال فيها قولته المشهورة عندما زارها: " دخلت بجاية فوجدت العلم ينبع من صدور رجالها أهلها كما تنبع المياه من ينابيعها، ووجدت فيها أربعمائة بيت يحفظن المدونة، أما اللواتي يحفظن مختصر ابن الحاجب فلا حصر لهن "(محمد الصغير بلعلام، 2019م، ص 72)، وحسب رواية أبي حامد الصغير الحسن بن محمد المسيلي فإن بجاية وحدها كان بها تسعون مفتيا في الفقه أواخر القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر ميلادي)، ويعلق الغبريني على هذه المقولة فيقول: " إذا كان هناك تسعون مفتيا في الفقه، فكم من مفتي في النحو، والأدب، والحديث ... إلخ "(محمد الصغير بلعلام، 2019م،ص255). بل ذكر ياقوت الحموي بأنه حتى العوام والعمي في بجاية كانوا يحفظون عن ظهر قلب: البخاري، والمدونة، والموطأ، والتلقين، ويشرحونها للناس من ذاكرتهم(ياقوت الحموي،1957م، ص113).

كما ترجم الغبريني في كتابه النفيس (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية)، لأكثر من مائة وعشرة من العلماء، والفقهاء، والأدباء، والشعراء، والأطباء، والحكماء، والرياضيين، والفلكيين، والمتصوفة، والفلاسفة، والمحدثين، والمناطقة، وغيرهم، ممن أنجبتهم بجاية أو جاءوا إليها من الأصقاع البعيدة ليستقروا بها، ويتعلموا، ويعلموا، ويكتبوا، ويؤلفوا الكتب، وينسخوا المؤلفات، ويقرئوا القرآن، أو مروا بها وأقاموا مدة ثم رحلوا إلى المشرق أو المغرب(يحي بوعزيز، 1993م، ص 8).

إن امتداد صيت المدينة إلى مختلف الأقطار، جعلها مقصد طلاب العلم والعلماء من الأندلس، وتونس، والمغرب، بل ومن وأوربا خاصة إيطاليا، وإسبانيا وجنوب فرنسا، التي كانت أنذاك في الجهل والاستبداد والسبات العميق. نذكر من جملة هؤلاء الوافدين إليها: عبد الحق الاشبيلي الأزدي (560.657هـ)، وأبو المطرف المخزومي (582

. 658هـ)، وأبو الحسن ابن عصفور حامل لواء العربية في زمانه (597 . 669هـ)، وأبو العباس ابن الغماز الأنصاري (609 . 693هـ)، وأبو بكر ابن محرز (569 . 655هـ)، والفنان الإيطالي الشهير LEANARDO DA VINCI" ليوناردو دافنشي"، والفيلسوف الإسباني ريمان لول RAMAN LULL، و رجل الدين الإيطالي دانتي DANTE ALIGHIRE، وغيرهم من النخب الأندلسية التي استقرت ببجاية.

و قد بقيت مكانة بجاية العلمية ممتدة إلى عهد الاستدمار الفرنسي، أعانتها على ذلك المساجد والمدارس الزوايا والكتاتيب القرآنية، و هذا ما نستشفه من كلام الإمام محمد البشير الإبراهيمي في حديثه عن شيوخ شيخه محمد المكي الإبراهيمي، فبعد أن عدّد بعض فضائل هذا المركز العلمي والحضاري على عمّه محمّد المكي ـ رحمه الله ـ قال: " إن هؤلاء العلماء لم يرحلوا إلى الأمصار الكبرى ذات الجامعات العلمية التاريخية، كفاس و تونس و القاهرة، و إنما كانوا يتوارثون العلوم الإسلامية طبقة عن طبقة إلى الأجيال المتخرجة من مدن العلم بالجزائر كبجاية و قلعة بني حماد التي كانت منارا للعلم و مهجرا لطلابه و مطلعا لشموسه "(محمد البشير الإبراهيمي،1997م، ص 272).

و من الأسماء اللامعة التي أسهمت في إثراء التراث الفكري والثقافي ببجاية يحي ابن معطي الزواوي الذي يعد رمزا من رموز العلماء المحققين الذين نالوا حظا وافرا ومقامات عالية من الشهرة في الجزائر وخارجها،فهو شخصية فذة قلما يجود الزمان بمثله، تفوق في ميادين مختلفة من المعرفة، فهو نحوي كبير، و لغوي بارز، و ذلك بالنظر إلى الإتقان الكبير و الحذق لأدق المسائل في علوم و فنون شتى وكذلك بما كان له من تميز بارع على أقرانه و معاصريه، و من بروز ملفت للنظر في علوم اللغة و الأدب الشيء الذي جعله يشار إليه من قبل معاصريه باعتباره من رؤساء المدرسة اللغوية في بجاية والأندلس.

لهذا رأيت من الواجب علي أن أقدم هذه المحاولة مبتغيا من ورائها إظهار جانب مغمور من فكر ابن معطي، الذي كان له فيه القدم الراسخة، و الباع الطويل، والإسهام العلمي البارز، هو الجانب البلاغي.

فالبلاغة الغربية ـ عند ابن معطي ـ هي من أشرف العلوم وأجلها، لأنها السبيل لتدبر إعجاز الذكر الحكيم، و المعين على تذوق النصوص الشرعية، و أساليب العرب الشعرية و النثرية، فهي تجري من علوم اللسان مجرى اللب من القشر، والروح من الجسد.

و على الرغم مما قيل عن عصر المنظومات والحواشي والتقريرات بـ (أنه عصر الجمود و الانحطاط) وهو العصر الذي عاش فيه ابن معطي، إلا أن علماءه سلكوا هذا الطريق بهدف تسهيل الفهم و تيسير المعاني على الطلبة، فساهموا بذلك في عملية التواصل المعرفي بهذا العلم.

2.التعريف بالإمام يحي ابن معطي الزواوي (564 هـ ـ 624 هـ):

1.2 نسبه:

هو يحي ابن معطي أبو الحسن زين الدين الزواوي الحنفي النحوي(جلال الدين السيوطي،1979م، ص *344*)، و يكنى بأبي الحسن واشتهر باسم ابن معطي،ولد سنة أربع و ستين و خمسمائة للهجرة، و لم تذكر لنا كتب التراجم مكان ولادته(محمد ابن خلكان،1972م، ص197)، والظاهر أنه ولد بظاهر بجاية حيث كانت تسكن قبيلته و ذلك بناء على طلبه للعلم على يد شيخه الجزولي الذي كان يقيم بالبلدة نفسها(يحي ابن معطي،1977م، ص 13).

2.2 نشأته:

نشأ ابن معطي ببجاية و تربى في كنفها، و كانت إذ ذاك تحت حكم الموحدين، فتلقى علومه القاعدية فيها و أتقنها إتقانا جيدا، و المصادر لا تسعف بتحديد مكان ولادته، و لا لكن الغريب أن أهل العلم لم يلتفوا إلى ابن معطي في صباه وهذا ما جعل مكان ولادته مجهولا، و اختلف بعد ذلك حين نبغ في علوم شتى جعلت منه قبلة لأهل العلم من حدب و صوب فالتفتوا إليه بعد نبوغه و بعد أن أظهر براعته و علمه(عبد العزيز الموصلي، 1985م، ص 16)، و إذا ألقينا نظرة على المكتبة العلمية التي تركها تعطينا صورة عن هذا العالم الذي كرّس صباه على العلم و التعليم، و كفاه فخرا أنه ألّف ألفيته المشهورة، و هو لم يتجاوز بعد الحادية و الثلاثين من عمره، وهذه السنّ المبكرة

أوصلته إلى فهم علوم النحو ولإتقانها و التأليف فيها شعرا (عبد العزيز الموصلي، 1985م، 11. 12).

كان ابن معطي أدبيا بارعا نحريرا محيطا بعلوم اللغة العربية و آدابها إحاطة السوار بالمعصم، يحسن قرض الشعر بمختلف بحوره، و يتقن نظم المعارف والعلوم، و قد نشأ في عصر أنجب علماء كثر فيما يتعلق بعلوم العربية و آدابها منهم:

عبد الله بن بري المصري النحوي اللغوي (ت 599ه)،و الإمام تاج الدين النحوي المحدث الحافظ (ت 613ه)، و ابن الرماح النحوي المقرئ(ت633ه)، وابن الخباز شمس الدين الإربلي الموصلي النحوي الضرير(ت637ه)، و السخاوي أبو الحسن علي بن محمد كان إماما في اللغة و النحو و التفسير(ت643ه)، و ابن الحاجب جمال الدين أبو عمرو صاحب الكافية في النحو(ت646ه).

3.2 رحلته:

و بعد أن رأى نفسه قد حقق أركان علوم المنقول و المعقول، قرر مغادرة بجاية نحو المشرق العربي، وبالفعل غادرها و توجه إلى دمشق و هو على مستوى عال ودقيق من المعرفة العلمية، و قد زادت إقامته بدمشق من تطوير مستويات معارفه تطويرا رفيعا جعله علامة المشرق و المغرب في العربية، وارتفع اهتمام العلماء به و بمناهج تدريسه و تناوله لمختلف المسائل العلمية، لذلك صار الإقبال عليه كبيرا، فاستقبله سلطان الشام آنذاك(الملك عيسى بن محمد الأيوبي) و هو أحد علمائها الكبار، وقد عرف عنه حبه للعلم وتمجيده للعلماء، " حيث عرف قدره و وضعه في مكانه المناسب، وأكرم وفادته وأبعد عنه غائلة الجوع و العوز، فولاه النظر في مصالح المساجد، فاستراحت نفسه وجلس في المساجد يقرأ الناس الأدب و اللغة، ثم توفي الملك المعظم عيسى، فتولى الملك الكامل الحكم في ذات السنة التي توفي فيها الملك عيسى، فاتصل ابن معطي بالملك الكامل، و كان هذا الملك كسابقه محبا للعلم و الأدب والأدباء"(عبد العزيز الموصلي، 1985م، ص 15).

و قد طلب منه الملك الكامل السفر معه إلى مصر، فوافق على ذلك، و لم يحدد المؤرخون له وقت سفره إلى القاهرة، و لكنه على الأرجح بعد سنة 624ه بقليل، و قرر له الملك راتبا على أن يقرئ الناس الأدب بالجامع العتيق بمصر، و هو جامع عمرو بن

العاص، و بدأ ابن معطي بعمله، حيث جلس لتدريس الأدب و النحو، فغشي مجالسه العدد الكبير من العلماء و الأدباء و طلاب العلم، و من المهم الإشارة إلى أن بصمات ابن معطي ظلت بارزة بوضوح في الجيل الذي تعلم على يديه و من أتوا بعدهم مباشرة، فقد كان رمزا راقيا في العمل التعليمي في كثير من مدارس دمشق و القاهرة، فهو من أنفق علمه الغزير في تكوين نخبة متميزة من العلماء الكبار،و لذلك كانت آثار علمه فيما كوّن من علماء ينتسبون إليه ويتبعون معالم منهجيته في تحصيل و نشر العلم، و لكن القدر عاجله و لم يمهله طويلا"(عبد العزيز الموصلي، 1985م، ص 16)، فتوفي بها سلخ ذي القعدة سنة 628ه، و دفن بالقرافة بطريق قبة الشافعي(يحي ابن معطي، د.ت، ص 15).

4.2 شيوخه:

تخرج ابن معطي بطائفة صالحة من مشايخ عصره، أخذ عنهم العلوم الشرعية من تفسير و حديث وفقه و علوم لغة من أشهرهم: الجزولي(ت 616ه)، و الكندي النحوي (ت597ه)، وابن عساكر(ت600ه).

وقد تخرج به الكثيرون، و أفاد من كتبه كبار المؤلفين في علوم اللغة والنحو، و لعل أبرزهم ابن مالك الأندلسي خاتمة المحققين و إمام النحاة في منظومته الشهيرة " الخلاصة "، كما ذكر المؤرخون و أصحاب السير والتراجم أن الذين قرؤوا عليه و لازموه كثيرون بين قاض و قارئ و عالم و كاتب و شاعر وخطيب و إمام حفلت كتب التراجم بذكرهم، و لعل أشهرهم: الحكم السويدي(ت 695ه)، أبو إسحاق إبراهيم ابن العطار(ت649ه)،أبو عمر القسنطيني الشافعي(ت695ه)، تاج الدين الصرخدي(ت 674ه).

5.2مؤلفاته: لقد أوتي ابن معطي كل المؤهلات العلمية التي مكنته من توريث ثروة علمية هائلة للأمة الإسلامية، و قد تعددت مواهبه فتعددت المجالات والعلوم التي ألّف فيها،و فيما يلي عرض لما وصل إلينا من كتبه:

ـ الدرة الألفية في علم العربية، و هي أرجوزة جمعت علمي النحو والصرف من بحرين هما: السريع والرجز، و قد قال عنها المقري: " و اعلم أن الألفية مختصرة

الكافية كما تقدم،و كثير من أبياتها فيها بلفظها، و تبع فيها ابن معطي و قالوا: نظمه أجمع و أوعب، و نظم ابن مالك أسلس و أعذب "(أحمد المقري،1986م، ص 432).

الفصول الخمسون في النحو ، شرح المقدمة الجزولية، البديع في علم البديع (منظومة في علم البلاغة اشتملت على واحد وخمسين محسنا بديعيا)،شرح الجمل للزجاجي، نظم كتاب الجمهرة لابن دريد، شرح أبيات سيبويه(نظم)، حواشي على أصول ابن السراج، ديوان خطب، ديوان شعر،العقود والقوانين في النحو،قصيدة في العروض،أرجوزة في القراءات السبع، قصيدة في العروض، نظم كتاب الصحاح في اللغة للجوهري و لم يكمله،

و هو إلى هذا كله قد امتاز بميزات منها:

ـ أول عالم عربي أثر عنه استخدام مصطلح (ألفية) و ذلك في منظومته(الدرة الألفية) حيث قال:

نحوية أشعارهم المروية هذا تمام الدرة الألفية

ـ كانت ألفية ابن معطي بمثابة المرجع لألفية ابن مالك، حتى إن بعض المصادر ذكرت أنها كانت من محفوظات ابن مالك، و أنه درسّها في مدارس الشام، قبل أن ينسج نظنه على منوالها، ذكر ذلك ابن حجر العسقلاني في ترجمة " أحمد بن عبد الرحيم بن شعبان الدمشقي الحنفي" أنه قرأ ألفية ابن معطي على ابن مالك ."

ـ قدرته على المزج بين أكثر من بحر في نظم واحد، فقد مزج بين الرجز والسريع في الدرة الألفية،

6.2منزلته العلمية: أتيح لابن معطي أن يصيب حظا وافرا من فنون من العلم مختلفة، و كانت موارده في ذلك متعددة متنوعة،أولها شيوخه الذين أخذ عنهم وقد تقدم ذكرهم، و ثانيها تراث عريض في علوم العربية و آدابها، فلا غرو بعد ذلك ـ فيما

ذكر السيوطي ." كان إماما مبرزا في العربية، شاعرا محسنا، وكان يحفظ شيئا كثيرا، فمن جملة محفوظاته: كتاب الصحاح للجوهري "(السيوطي،1978م، ص 344).

و نعت ابن الودي في تاريخه نظمه الموسوم بالدرة الألفية، بقوله: " و هي شاهدة لناظمها بإصابة الصواب، و التفنن في الآداب، حتى كأن سيبويه ذا الإعراب، قال له: يا يحي خذ الكتاب "(عبد العزيز الموصلي، 1985م، ص33).

3.تمهيد عن اعتناء علماء الجزائر باللغة العربية:

عرفت الجزائر عبر حقبها التاريخية المختلفة اهتمام علمائها بعلوم اللسان العربي، فقد ورثوا للأجيال إرثا لغويا شمل كل علوم اللغة، و ذلك بدءا بعبد الرحمن بن موسى الهواري، وبكر بن حماد التاهرتي اللذان عاصرا كبار علماء اللغة في المشرق كالأصمعي وأبي زيد الأنصاري، ومرورا بمحمد بن الحسن القلعي صاحب الموضح في النحو، وشهاب الدين المقري شارح ألفية ابن مالك، وابن مرزوق الخطيب في كتابه " المفاتيح المرزوقية لحل الأقفال واستخراج خبايا الخزرجية "، و يحي الشاوي صاحب شرح التسهيل في النحو، فتح المنان في شرح الأجوبة الثمان، وأبو راس الناصري صاحب نيل الأماني على مختصر سعد الدين التفتازاني، وشارح مقامات الحريري، و غيرهم كثير من أساطين اللغة والبيان.

1.3مظاهر اهتمام علماء الجزائر بعلم البلاغة: عني علماء الجزائر ببلاغة العجم و أهل الفلسفة، واهتموا بشرح كتبها وإحيائها ونظمها، فألفوا كثيرا من الشروح و الحواشي و المنظومات، و قد كان المفتاح و التلخيص والإيضاح محور الدراسة، ومن العلماء الذين أسهموا في ميدان البلاغة على سبيل التمثيل: يحي بن معطي الزواوي في نظمه " البديع في علم البديع "، أبو العباس ابن قنفذ القسنطيني(809ه) في كتابه الموسوم بـ" التلخيص في شرح التلخيص"، زيان إبراهيم بن فائد الزواوي(ت857ه) و ذلك في كتابه " تلخيص التلخيص "، أحمد بن عبد الرحمن الخلوف القسنطيني(ت899ه) له كتب كثيرة منها: نظم التلخيص،مواهب البديع،شرح مواهب البديع، محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني(ت909ه) صاحب مختصر تلخيص المفتاح وشرحه، عبد الرحمن الأخضري(ت983ه) في نظمه الجوهر المكنون في صدف

الثلاثة الفنون، و له شرح عليه، محمد الثغري(ت ق12) له شرح على نظم الجوهر المكنون سماه بموضح السر المكمون على الجوهر المكنون في الثلاثة الفنون، الحسين بن محمد الورثيلاني(ت1193ه) له كتاب: الجواهر المنثورات في علم تحقيق الاستعارات،محمد بن الطاهر الهواري (ت1220ه) له حاشية في أنواع الجناس، علي بن عبد الواحد السجلماسي (ت1247ه)له كتاب بعنوان: شرح منظومة مائة المعاني والبيان،محمد بن محمود العنابي(ت1267ه) له كتاب موسوم بـ " التحقيقات الإعجازية لشرح نظم العلاقات المجازية "،محمد بن عبد الرحمن الديسي(ت1339ه) له البديعية المسماة تحفة الإخوان، وهي أرجوزة في ثمانين بيتا ضمن كل بيت منها محسنا بديعيا.

2.3 نشأة المنظومات البلاغية:

ظهر النظم عند العرب في القرن الثاني الهجري، و لم يكن العرب أول من اخترعه، فقد عرفه اليونان عند هوميروس و ذلك في ملحمته التاريخية " الإلياذة "، و قد بدأ ظهور المتن المنظوم عند العرب حين اتسعت معارفهم، و تنوعت ثقافاتهم، وقد شعروا آنذاك بحاجتهم إلى نوع خاص من التأليف يعينهم على استرجاع المعارف و حفظها، فاستعانوا على ذلك بالشعر الذي امتلكوا ناصيته،يقول محمد هدارة: " لعل آخر الاتجاهات الجديدة التي تناولها بالدراسة،و التي لاحظنا نشأتها في شعر القرن الثاني، هو الفن التعليمي الذي يصطنعه الشعراء عادة لنظم أنواع شتى من العلوم و المعارف تسهيلا لحفظها،ومما لا شك فيه أن هذا الفن إنما اقترن باتساع المعارف و العلوم،وازدياد الإقبال على التعليم والتعلم في القرن الثاني، وما كان ممكنا أن ينشأ في الشعر العربي فن تعليمي قبل هذا القرن لهذا السبب نفسه "(محمد هدارة،1963م،ص 354).

ثم توالت المنظومات العلمية عبر الزمن، حتى جاء عصر المماليك الذي اتسع فيه هذا النوع من الشعر، و اتسعت موضوعاته فشمل كل العلوم و منها علم البلاغة، إذ أقبل الناظمون على النظم ليسروا على المتعلمين استحضار المعارف والإلمام بحفظها، فجاءت هذه الأراجيز والتي منها مايلي:

.نظم الغرر " للمطرزي" (ت610ه) و هو على بحر البسيط.

.نظم " البديع في علم البديع " ليحي بن معطي الزواوي (ت628ه) .

.أرجوزة " خلاصة التبيان في المعاني و البيان " لأبي حيان الأندلسي(ت745ه).

. أرجوزة " ترجيز المصباح في اختصار المفتاح " لمحمد بن عبد الرحمن المراكشي(ت807ه).

.نظم " التلخيص في نظم التلخيص " لزين الدين الحلبي(ت808ه).

و هنا يعن لنا سؤال فحواه، ما هو أول نظم ألّف في علم البلاغة ؟ و للإجابة عن هذا التساؤل نقول: من المقرر في الكتب المعتنية بعلم البلاغة أن نظم المطرزي هو أول نظم ألّف في هذا الميدان، ولكن ظهور نظم ابن معطي إلى حيز الوجود ربما يجعل القطع في هذه القضية من الأمور الصعبة، لأنهما متعاصران، قريبان في الزمن من بعضهما البعض، أضف إلى هذا أنهما لم ينصا في نظمهما على سنة التأليف، فلذلك لا يمكن الجزم بتقدم أحدهما على الآخر.

4.نظم (البديع في علم البديع) و قيمته العلمية:

إن المطلع على نظم البديع في علم البديع و الدارس له يدرك نية الناظم في ذلك: فهو أراد أن يسهل على المتلقي استيعاب علم البديع، بعيدا عن التعقيدات والخلافات التي تشتت ذهن الطالب، و بالنظر إلى أن العلم لا بدّ من حفظ أصوله و ضبطها، فلجوء ابن معطي إلى النظم في حدّ ذاته هو تسهيل على المتعلمين، لأنه أسهل للحفظ و أعلق بالذهن و أيسر للاستحضار، و قد عمد إلى التنويع في البحور الشعرية، بما يناسب نظم هذه القواعد البلاغية، و بما يقرب حفظ شواهدها الشعرية، وهذا ما ذكره الجاحظ، بقوله: " كانوا يربون صبيانهم على الأرجاز، و يعلمونهم المناقلات، و يأمرونهم برفع الصوت، وتحقيق الإعراب "(الجاحظ،1998م،ص 272).

كما أن الناظر في هذا النظم سيلحظ اللغة السهلة، والأسلوب السلس الموجز الذي مال إليه الناظم، إذ يستطيع المبتدئ فهم نظمه دون عناء، لأنه يتوفر على عناصر التبسيط و التوضيح لقواعد البلاغة العربية، فالنمط التعليمي كان سمة بارزة في ذلك العصر.

و يمكن معرفة منهجه في تيسير تعليم و ضبط علم البديع فيما يلي:

1 . جاء نظمه جامعا شاملا لمختلف الألوان البديعية، كما التزم فيه منهج التبويب و التقسيم.

2 . ابن معطي واضح المنهج من حيث سرد القواعد، و بساطة عرض المسائل، حيث اشتمل على أهم أبحاث علم البديع، مع التنظيم المتقن المزين بأحسن الفوائد العلمية.

و 3 . اعتماده على الاستدلال بالشواهد الشعرية،و ذلك بهدف إثبات القاعدة البلاغية و ترسيخها في ذهن المتعلم، و الأمثلة على هذا كثيرة، من ذلك قوله في التكافؤ:

و بيت التكافؤ فيه طباق لبشار القول فيه استتم
إذا أيقظتك حروب الردى فنبه لها عمرا ثم نم

و من ذلك قوله في الالتفات:

و قول كثير فيه التفات بدى في الحسن ذلك حيث قالا
لو أن الباخلين و أنت منهم رأوك تعلموا منك المطالا

4 . سلاسة الألفاظ ووضوح الدلالة في جل الأبيات، فقد اجتنب ابن معطي الكلمات الخشنة التي يصعب على المتعلمين إدراكها، فانظر مثلا إلى قوله في التسهيم:

و استمتع للتسهيم و هو يُسمى أيضا التّوشيح الذي فيه قيلا
فإذا حاربوا أذّلوا عزيزا و إذا سالموا أعزّوا ذليلا
فانظر إلى القول كيف تمّ ابتداء و تقضّى ذاك التّمام عديلا

5 . يلاحظ في أسلوب نظمه أن الناظم يضع عنوان الباب مستقلا عن أبيات النظم.

6 . ذكره للحدود، و هذا شأت علماء المنطق، حيث يتم تعريف الشيء و ضبطه وحصره بدقة، وظاهر أن الناظم ذكر حدود بعض الفنون، من ذلك ذكره حدّ الإيغال بقوله:

وهاك و في الإيغال و الحد فيه أن تجيء بمعنى كامل و متمم

و من ذلك ذكره لحدّ الإلغاز، بقوله:

و هاك و في الإلغاز و هي استعارة تشير إلى المعنى بإيهام مفهم

1.4عنوان النظم :

من خلال اطلاعنا على أبيات النظم وجدنا ابن معطي لم يصرح بعنوان نظمه، لكننا إذا فتشنا التراث البلاغي وجدنا بهاء الدين السبكي يعد نظمه من مصادره الأساسية في كتابه المشهور " عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح" و قد نقلها تحت مسمى " النظم في علم البديع "(السبكي، 1937م،ص 13)،أما خير الدين الزركلي فقد ذكر مصنفات ابن معطي و جعله تحت عنوان: " البديع في صناعة الشعر "(الزركلي،2002م،155/8)، و الظاهر أن عدم ورود العنونة من ابن معطي أوقع بعضهم في استبدال منظومته البديعية بمنظومة له في علم العروض، و ذلك من خلال تصريحه في المقدمة، بقوله:

و بعد فإني ذاكر لمن ارتضى بنظمي العروض المجلي و القوافيا
أتيت بأبيات البديع شواهدا أضمّ إليها في نظيمي الأساميا

نعم، هذا ما أوهم بعضهم و أوقعهم في الخلط بين نظم البديع في علم البديع ونظم العروض، الذي قال عنه ياقوت: " و نظم الجمهرة لابن دريد،و المثلث في اللغة، و قصيدة في العروض، و قصيدة في القراءات السبع"(الحموي ياقوت،1993م، 6/ 2831).

2.4توثيق نسبته إلى المؤلف:

ثبت بما لا مجال للشك فيه نسبة هذا النظم الجليل إلى العلامة ابن معطي، والداعي إلى تأكيد هذه النسبة أن أغلب من ترجم له نسب النظم إليه، مع اختلاف تسميته في بعض كتب التراجم والفهارس و لعل أقوى ما يدل على هذا تصريحه باسمه في مطلع الأرجوزة إذ يقول:

يقول ابن معط قلت لا متعاطيا مقالة من يرجو الرضا و المغانيا

3.4موضوعات و مسائل النظم:

امتاز ابن معطي بحسن التأليف والتصنيف، مع براعة التنظيم والترتيب، وفق ما هو معمول به في الدراسات العلمية الأكاديمية الحديثة، و قد اشتمل نظمه على مقدمة و ثمانية وأربعين مصطلحا بلاغيا وخاتمة.

هذا و قد اختصت منظومة ابن معطي بفن علم البديع، مع الإشارة أحيانا إلى بعض فنون البلاغة الأخرى، وكان هذا ديدن العلماء على طول مسار التاريخ البلاغي،

فمنظومة الاستعارات للطبلاوي(ت1014ه) اختصت بالاستعارات،و " حسن المجاز بضبط علاقات المجاز" للسندوبي(ت 1097ه) مختصة بالمجاز، و"ياقوتة البيان" للإفراني(ت1156ه) مختصة بعلم البيان، ونظائر هذا كثير في التراث البلاغي.

اشتملت بديعية ابن معطي"على على تسعة وتسعين و مائتي بيت(299)، منها أربعة وأربعون ومائة بيت(144) من نظم ابن معطي،و ثلاثة وخمسون ومائة بيت(153) من الشواهد الشعرية الذائعة في مصنفات البلاغيين،و قد جاء الشطر الأول في البيتين التاسع و العشرين والثلاثين(29، 30)من نظم ابن معطي، أما الشطر الثاني فيهما، فمن شواهد البلاغيين.

و يتناول ابن معطي في منظومته ثمانية وأربعين فنّا بديعيّا، دون أن يلتزم فيها بحرا واحدا،و لا قافية واحدة، بل استعمل ثمانية أبحر هي، الطويل خمسون ومائة بيت(150)،الكامل اثنان وخمسون بيت(52)،البسيط تسعة وثلاثون بيت(39)،المتقارب اثنان وعشرون بيت(22)،الوافر واحد وعشرون بيت(21)، الخفيف سبعة أبيات(7)،الرجز أربعة أبيات(4)، السريع أربعة أبيات(4)، توزعت جميعا على خمسة عشر ومائة روي "(بن معطي يحي ،2014م، ص 38).

4.4 مصادر ابن معطي في عرض مسائل علم البديع:

اعتمد ابن معطي في نظم مسائل على أمهات كتب البلاغة والنقد و في مقدمتها نقد الشعر لقدامة بن جعفر، و كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري،و مواد البيان لعلي بن خلف، و العمدة لابن رشيق المسيلي القيرواني، وسر الفصاحة للخفاجي،والبديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ، و غيرها من المؤلفات البلاغية التي ذاع انتشارها في بلاد مصر و الشام.

ثم إن من ينعم النظر في منظومة ابن معطي يجد أنه اعتمد بشكل كلي على نظم فصل في علم البديع عقده الخطيب التبريزي(ت502ه) في آخر كتابه الكافي في العروض والقوافي، ولم يخالفه إلا في مواضع يسيرة إما بالتقديم و التأخير كما فعل في فن السلب والإيجاب، فقد قدمه التبريزي على فن الكناية والتعريض، في حين أخرّه ابن

معطي إلى ما بعد فن الالتفات، و خالفه في موضع واحد و ذلك حين ذكر فن الإلغاز الذي يرد ذكره عند الخطيب.

5.4المصطلح البلاغي في منظومة ابن معطي:

من المسلمات التي لا تكاد تخفى على من له أدنى نظر في كتب علم البلاغة، كثرة المصطلحات البلاغية لهذا العلم قياسا على بقية علوم اللغة العربية الأخرى، فحين ننظر مثلا إلى أحد أقدم علوم اللغة تأليفا و هو علم النحو، نجد أن مصطلحاته مجتمعة مع صنوه علم الصرف، لا تكاد تتجاوز خمس وخمسين وستمائة (655) مصطلحا، في حين نجد أضعاف هذا العدد في علم البلاغة، فقد أحصى الدكتور أحمد مطلوب في معجمه البلاغي سبعة وثمانين وألف(1087) مصطلحا بلاغيا، و قد حظي علم البديع بنصيب الأسد، فقد ورد فيه ما يقرب من سبعمائة وتسعة وثلاثين(739) مصطلحا.

و إذا رجعنا إلى منظومة ابن معطي فإننا نجده يعتمد الإقلال من المصطلحات البلاغية، على عكس ما فعل قبله ابن رشيق المسيلي(ت456ه)، الذي وصل عدد المحسنات عنده إلى ستين(60)نوعا، و لا ما فعله بعده شرف الدين التيفاشي(ت651ه) الذي أوصلها إلى سبعين نوعا، ناهيك عن ابن أبي الإصبع المصري(ت654ه) الذي أوصلها إلى ثلاثة وعشرين ومائة نوع(123)، فابن معطي بالمقارنة مع من قبله ومن بعده نجده لا يتسابق إلى اختراع أنواع أخرى من البديع، والفخر بعدم السبق إليها، بل نجده ربما جمع فنين في فن واحد، مثلما فعل مع التسهيم و التوشيح حينما جمعهما تحت فن واحد، على الرغم من أنهما فنان متمايزان عند بعض البلاغيين،يقول:

واستمع للتسهيم و هو يسمى أيضا التوشيح فيه قيلا

و هذا الأمر نفسه فعله مع التعطف و التردد، حينما جمعهما تحت فن واحد، وإن كانا فنين مختلفين عند بعض البلاغيين، يقول:

و هاك و الترديد ما قال من أتى بلفظ وفي ثم عاد يطالبه

بمعنى سوى المعنى المقدم ثم قد يسميه أيضا بالتعطف جالبه

و يلحظ المتأمل لنظم ابن معطي أيضا دقة صياغة المصطلحات البلاغية، فالالتفات هو عند الاعتراض والرجوع،أو التصرف في الكلام بالخروج من حيز إلى حيز، وهذا ماقرره حين قال:

و الالتفات و هو اعتراض مجمل فيه لحسان جمال المجمل

و قل مثل ذلك في التجنيس التي عرفه بقوله:

و هاك و في التجنيس وهو اشتقاقه من اللفظ لفظا منه ذا المطلق انرسا

لكن مما يمكن أن يعترض عليه ابن معطي هو الغموض الموجود في بعض فنون المنظومة كالموازنة، الاستدراك، الإشارة... ، فإنه أهمل ضبط معاقد حدودها، وأوجز في بعضها إيجازا مخلا

5. خاتمة:

انتهت الورقة البحثية واستوت على سوق النتائج الآتية ذكرها:

ـ تصدر ابن معطي لإقراء النحو و الأدب دهرا طويلا في كل من القاهرة و دمشق، وتخرج به الكثيرون و أفاد من كتبه و منظوماته كبار المؤلفين، و لعل نظرة فاحصة في تراثه المعرفي تكشف قدرته الفائقة على النظم.

. اجتمعت عوامل و ظروف و عناصر متعددة كان لها الأثر الكبير في تكوين ابن معطي و نبوغه، فقد نشأ في بجاية التي كانت مركزا علميا، و ملقى لفطاحل العلماء، هذا بالإضافة إلى الاستعداد الفطري والمواهب التي رزقها منذ حداثة سنه، و قد ظهر ذلك جليا في اجتهاده و حرصه و تفانيه في طلب العلم، مع توفر أساتذة و شيوخ أفاضل أخذ عنهم، كل هذا ساهم في بروزه و تمكنه في جملة من العلوم والفنون.

.كان ابن معطي متماشيا مع عصره الذي انتشرت فيه المنظومات العلمية، التي تضبط أصول العلم وقواعده، و تقرب مسائله من أذهان المتعلمين.

. من المقطوع به أن منظومة البديع إلى علم البديع هي من أقدم المنظومات البلاغية، بل لعلها أقدم نظم بلاغي، ولذا ينبغي التنويه بهذه الريادة في تاريخ الدرس البلاغي.

. يعد نظم البديع في علم البديع مصدرا من مصادر علوم البلاغة في المدرسة البلاغية المغربية.

- اشتملت منظومة ابن معطي على علم البديع بشكل رئيس، لكنها اشتملت على مصطلحات من فنون أخرى مثل الاستعارة، الكناية، الإشارة...إلخ،يجدر بنا التنويه بأن هذه بأهم خصائص هذا النظم و هو: العبارة الموجزة، الاختصار الشديد، طغيان التلميح في كثير من الأبيات على التصريح، الإيجاز و الرمز استجابة لما تقتضيه الأوزان الشعرية من تقديم أو تأخير أو حذف.

- تندرج جهود ابن معطي ضمن الجهود التيسيرية للدرس البلاغي،و يمكن تصنيفها ضمن الاتجاه الإحيائي الذي يهدف إلى تطوير البلاغة عن طريق التدرج في مراعاة قدرات المتعلمين.

6. قائمة المراجع:

الإبراهيمي محمد البشير،1997م،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، طبعة دار الغرب الإسلامي، المجلد5.

الزركلي خير الدين، 2002م، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15.

هدارة محمد،1963م،اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف،مصر، ط1.

ابن معطي يحي،1977م، الفصول الخمسون، تح: محمود الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

الحموي ياقوت، 1993م، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: إحسان عباس،دار الغرب الإسلامي.

الموصلي عبد العزيز، 1405هـ . 1985م،شرح ألفية ابن معطي، ، تح: علي موسى الشوملي، مكتبة الخريجي، الرياض، السعودية، ج1.

البلوي خالد، د.ت، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح: الحسن السائح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

العبدري محمد،1428 . 2007م رحلة : المسماة الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي.

بلعلام محمد الصغير،2019م، علماء من زواوة، شركة الأصالة للنشر، ط3، الجزائر.

الحموي ياقوت،1957م، معجم البلدان، ج3، بيروت، لبنان.

ابن خلكان محمد،1972م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ج6.

المقري أحمد،1986م، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط07، ج1.

السبكي بهاء الدين،1937م، عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص،ط الحلبي،القاهرة.

بن معطي يحي، 2014م، البديع في علم البديع، تحقيق و دراسة: محمد مصطفى أبو شوارب،مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت.

بوعزيز يحي،1993م،مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوربا،مجلة الحضارة الإسلامية، المجلد1، العدد1.